ستديو ثقافة شعبية

مسابح ..اشكال والوان

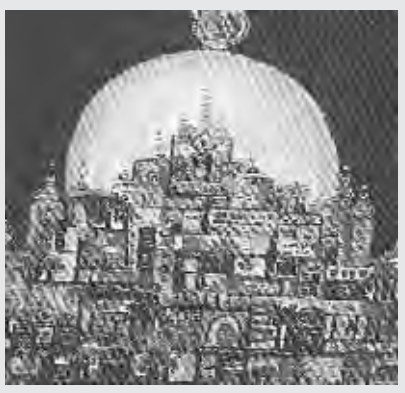

بغدايات

لعبة الدعبل

الغنـــــاء بـين الـــــريف والمـــديـنـــــة

الشيخ جلال الحنفي

التمييز بين الغناء الريفي وغناء أهل المدن تمييز لا يحتكم –على مدى بعيد –الى ما يسمى بريف او مدينة ..
فان المدن قد تستطيب اغاني ريفية فتتداولها حناجر مغنيها..
وفي العراق كان اهل الريف ينقلبون الى المدينة في هجرات جماعية مكثفة بعد كل حالة من حالات فراغ المدينة الذي ينشأ بفعل الطواعين والفيضانات فيغادرها معظم ساكنيها.. فيكون –بعد انحسار الغمة –من بعض عمل السلطة الحاكمة اجتلاب الناس من الارياف القريبة والبعيدة الى المدينة فيستقيم بهذا امرها من جديد وتسترجع ماضي عمرانها واسواقها ومساجدها، ويكون بعض الذين غادروها قد عادوا اليها ايضاً.. ولذلك تنهض المدينة فتبسط سلطانها على القادمين من الريف اذ لا يقوى هؤلاء على التحكم فيها قدر ما تقوى هي على التحكم فيهم فيبدأون انذاك بتطبيع انفسهم على الحياة فيها كسائر سكانها لاسيما حين لا يكون النازحون الجدد على كثرتهم فئة واحدة لها من القيم الاجتماعية والفكرية ما يوحد بين افرادها وبذلك تتغلب البقية من السكان القدامى –وفيهم بعض ذوي الطول –على التنظيم الاسكاني الجديد في المدينة..
وكان هذا هو السبب في ان معظم التقاليد المتوارثة في المدن تلبث هي الطابع الاساسي فيها رغم الكوارث الجائحة المتكررة، ذلك لان المدن لا تزول زوالا ابدياً في حالات نادرة.
كما ان الجموع المغادرة للمدينة أبان حدوث الغوائل والمجاعات والكوارث تكون ذات دور اجتماعي في تكييف الارياف والمدن التي تستقر فيها ببعض الكيفيات المنقولة معها الى ذلك المستقر.
وهذا كذلك يفسر وجود مشتركات في الامثال والاعراف والغناء لدى اهل اكثر من بلد او اقليم.
والريف ان كانت بيئته لا تمتلك من الآلات الموسيقية ما تمتلك بيئة المدينة فلما يشق من نقل ذلك على ناقليه لكثرته وصعوبة تلقيه، ومثل ذلك يقال في الكلام على المقام العراقي وفراغ الريف منه، غير ان اخذ الريف من المدينة في الاحوال الاعتيادية على كثرة ما اخذ او قلته مسألة من البديهيات لان سكان الارياف يحبون ان يقتبسوا من المدن ما يحسبونه مصدر اهميتها –اي اهمية هذه المدن –من ازياء وامتعة ومقتنيات تستمتع الناس باقتنائها. ومامن شك في ان الذوق وتجانس الاهواء يؤدي الى اصطفاء امور وتجاوز امور.
والمدينة لا تنظر الى الريف نظرة الريف الى المدينة لذا نراها لا تأخذ من الريف شيئاً دون تبصر.
وعلى هذا بقيت المدينة محافظة على طابعها الغنائي والنغمي هذا الدهر البعيد .. ولا ينفي ما نقول ان يكون الريف عبر ادهار التاريخ من بعض موارد الغناء والتنغيم فيها.
غير ان ما اثبتناه لبغداد من ميزة في هذا الوجه ظلت تطغى على كل تيار غنائي يأتيها من الخارج لا ينسحب على مدن اخرى كالقاهرة مثلاً.. وذاك ان أغاني القاهرة وموسيقاها النغمية قد انتقلت من القاهرة بالجملة الى الريف المصري من امد غير محدد وما كان قد بقي من ذلك في صميم المدن لم يعد شيئاً مذكوراً.

الحـلي الـــــذهـــبـــيـــــة في هـــيـــت

عبد الرحمن جمعة الهيتي

هيت مدينة معظم سكانها .. كسبة .. عمال .. حرفيون.. زراعيون يعملون في قلع الحجر ونحته.. وفي النورة وتطفاتها وفي النواعير ونجارتها وفي السفن المتعددة والذهاب بها الى الجنوب. لا وجود للعنصر العشائري.. ويسمون باسماء البيوتات.. يفرحون ان تبوأ ابن مدينتهم مراتب العلم.. يؤمنون بان رزق الغد على الله تعالى.. لا يدخرون الاموال ولا يعرفون حساب الربح والخسارة.
لذا فان اغلب نسائهم لا يعرفن فن صناعة الحلي والمجوهرات ولا اوزانها وكيف تلبس ما تزين به من شذرات او خرز وان قليلا من العوائل تملك الحلي وقد لاتلبس الا نادرا وبعضهم تركوها حبيسة زهريات فخارية ماتوا .. وما تزينوا بها.
في الاربعينيات كان شاب قد نصب الهوى له شركا فاصابه وكان عليه ان ينقد والدها مهرا عشر ليرات ذهبا .. فدله اصدقاؤه على الفلاسين التي سكت في زمن الملك غازي كانت وقتها ذات بريق ذهبي.. حمل الفلاسين وذهب بها الى والد خطيبته عشاء فوجده ممدا رجليه في تنور البيت الارضي فانقده مهر حبيبته فوافق على ان يتزوج بعد اسبوع.
ومع هذا فان هنالك حلياً تتزين بها النساء منها الخزامة والوردة والعران، وهذه تلبس في الانف وللخزامة اشكال متعددة خزامة (ام زنبور) (مزهرة). واغلب النساء يلبسن الجلاب ليثبت الملفح على الراس وتتباهى به حينما تلبسه عصراً وفي الاعياد والمناسبات والاغنية تقوم:

يام جر غد المايل خلاني بالحسرات
والله فلا عايل

ومن ملبوسات النساء على الجبهة (الذهوبة) وهي مجموعة من الليرات الخفيفة الوزن والماطرة بشناشيل منقوش عليها بعض اسماء الله الحسنى والاغنية تقول:

صفت ذهوبة من الصابر على الصابر
شم دوب قلبي على فراق الولف صابر

اما ما يلبس في الاذنين هو الـ (تراجي).. (تراجي) صباح الخير وهي مزهرة مطعمة بالشذر و(تراجي) مركبة واغلبها على شكل كف انسان او على اشكال مثل وردة او مثلثة ومزخرفة بزخارف بسيطة.
اما ما يلبس في اليد فهو السفايف وهي باشكال متعددة مزهرة عريضة بعرض انج ونصف ومنها سفايف مركبة (داخل بارش) او ملاوي تشبه الحية. والمحابس باشكال متعددة التصاميم وبسيطة الشكل.
وما يلبس في الساقين هو حجل الفضة ونادرا ماتجد لدى امراة حجلاً من الذهب، كندرة السلاح التي تلبسه المراة والمصنوع من الذهب، وللاطفال حليهم الخاصة بهم منها (شنشول) وجناغ يلبس مع مجموعة من طاردات الحسد والتي تشترى من العطار، او (محمدية) قطعة من الذهب تعلق عند رقبة الطفل مزخرفة بشكل جميل وعليها اسم من اسماء الجلالة.
كذلك يلبس الطفل (جرس) من ذهب يحزم به بخيط تحت الملابس. او قطعة ذهب صغيرة تعلق في غطاء الراس (الكبع) تشبه الطير وتلبس الفتيات قطعاً من الذهب البسيطة الشكل منها المحابس او التراكي والاسورة.

خارج المدى

وقفات على الغصن

طلال سالم الحديثي

الفانوس

حتى منتصف الخمسينيات وما قبلها كانت للفانوس مكانة وهيبة في حياة العراقيين لان أغلب مدنهم وقراهم لم تعرف الكهرباء حينها، وكان الفانوس ومن قبله (اللمبة) المصنعة محلياً هما أداتا الأنارة في البيوت والشوارع او الازقة، ولما قال قائلهم: فانوسكم بالدرب هو العمه عيوني، او في رواية اخرى: هو الشده بالي، كان يشير الى محبوبته التي يشع جمالها كما يشع الفانوس ضوءاً، ثم طمست الكهرباء الفانوس وضوءه لما عمت عموم المطر في حياة الناس، وانزوى الفانوس حسيراً لايذكره ذاكر وبارٍ كسلعة في أسواق الباعة وبقيت صورته معلقاً في الأزقة والدروب كشيء من التراث آيل الى الزوال.
لكن الزمن فيما يبدو يعيد الادوار في حياة الناس خاصة في البلاد التي لاتضع رجلها موضعها، وهكذا استعاد الفانوس هيبته ومكانته حين مرضت الكهرباء في بلدنا مرضها العضال الذي لا يرجى منه شفاء، بل صارت للفانوس مكانة مركبة اذا صح التعبير فهو مصدر الضوء في بيوتنا وعلى ضوئه يقرأ ابناؤنا واطفالنا دروسهم، وهو مصدر رخيص إذا قيس ثمنه بثمن (أمبير المولد) او المولدة الصغيرة سريعة العطب كثيرة التكاليف او غاليتها، حتى استحق الفانوس ان تنظم فيه قصائد عصماء في مدحه او التغزل بضوئه، ولعل ذلك الأرتباط العجيب بالفانوس الذي عبرت عنه عاشقة والهة حينما قالت:
خدرت بالفانوس حسبالي قوري، دمعي فطوري، أقول لعل مثل هذا الارتباط الذي كان للفانوس في حياة الناس السالفة يعيد لنا في حياتنا الراهنة صوراً نابضة حية عن واقع معيش لا يتهم بالوله وعمى البال ان صح التعبير إنسياقاً مع التعبير الشعبي ولكنه يتهم بأنه لثقله وتعقيده يشيب الرضيع.

الأمثال الشعبية والمناخ

نظرة الى محتوى الامثال الشعبية العراقية ترينا عالماً متشابكاً من المعاني والمعارف والملامح التي تقطع بغنى العقل وعمق التفكير الذي يقف وراء ذلك الابداع الشعبي في الامثال، وفي هذه الوقفة أشير الى موضوعة (المناخ) وبعض عناصره التي ورد عنها في الأمثال مالم يقف عنده الباحثون في التراث الشعبي او مالم يبحثوا في تفاصيله.
جاء في الأمثال الشعبية العراقية في صفة المتقلب العارض الذي لا يلتزم بعهد او كلام قولهم: برك صيف، اي مثل البرق في الصيف الذي لايرافقه او يعقبه مطر فمثله مثل الانسان الذي لا ينتفع بعمله اولا تعقب أقواله أفعال لها مغزى وفائدة، وورد في الامثال الشعبية قولهم: كراكيع نيسان، وهو قريب في المعنى من المثل الذي سبقه، وورد في الامثال الشعبية قولهم: عشرة من آب تحرق البسمار في الباب وعشرة من آب تكثر الارطاب وتقلل الاعناب، وعشرة من آب تفتح من باب الشتا باب، فالعشرة الاولى من آب أيام شديدة الحرارة تعقبها عشرة أيام يكثر فيها الرطب وتقل فيها الاعناب أما العشرة الاخيرة من آب فهي أيام تعتدل فيها الحرارة ويطيب الجو مما يمهد لقدوم الشتاء.
ومن الأمثال الشعبية الاخرى: الباب اللي تجيك منها ريح سدها واستريح، وهكذا تكون المعاني في الامثال ومن الممكن تتبع هذه الامثال الخاصة بمفردات المناخ وجمعها وشرحها وفي هذا العمل يتضح مجموع من الامثال له أهميته في مجال البحث في التراث الشعبي، ولعل هذه الوقفة تفتح ضوءاً على موضوع لم يزل أمره ثاوياً في ظلال من العتمة.

مـنـــــاهـج في الـــــدراســـــات الـــشـعـبـيـــــة

د. حـــافـظ الاســـود

تعددت المداخل والنظريات التي تناولت العلاقة بين الجوانب المادية او الاقتصادية والظواهر الاجتماعية والانماط الثقافية. ويمكن رد هذه النظريات والتفسيرات المختلفة إلى اربعة نماذج مهيمنة. الأول هو النظرية الوظيفية البنائية التي تعالج الظواهر والتصورات الجمعية على اساس انه يؤلف نسقا وظيفياً متساندا. فالظواهر الاجتماعية والرمزية تعالج من منظور الوظيفة التي تقوم بها في حفظ المجتمع وتحقيق توازنه او تماسكه الاجتماعي. ويمثل هذه النظرية الكلاسيكية دوركيم Durkheim وراد كليف بروان Radcliffe - Brown وايفانز بريتشارد Evans - pritch-ard.
ثانياً، التفسير المادي الاقتصادي الذي وضعته المدرسة الماركسية والذي يذهب إلى ان الاساس الاقتصادي يوجه ويحكم الخصائص الاجتماعية والثقافية والسياسية للمجتمع. ويمثل هذه النظرية في الدراسات الانثروبولوجية مارفن هاريس (١٩٦٨) Marvin Harris صاحب فكرة المادية الثقافية Culture Materi-alism. وطبقاً لآراء اصحاب التفسير المادي او الاقتصادي، فان التغيرات التي تطرأ على أنماط السلوك والقيم الثقافية والاجتماعية المرتبطة بها يمكن تفسيرها في حدود من العوامل المادية او المتغيرات الاقتصادية، (Csikszentmihalyi، Mihaly and Rochberg - Halton 1981).
ولعل اقرب مثال لتوضيح ذلك هو المثال الذي ذكره هاريس حول الانماط السلوكية عند الهندوس بالمجتمع الهندي، حيث يذهب إلى ان تقديس البقرة لا يرجع إلى اسباب دينية او ثقافية بل إلى الاهمية المادية والاقتصادية للبقرة من حيث هي مصدر جوهري للاقتصاد الإعاشي الذي يعتمد على الحليب، والذي يعد الغذاء الرئيس للفلاح الهندي، بالاضافة إلى دور البقرة الحيوي في الاعمال الزراعية.
أما النظرية الثالثة فتتبع تحليل ماكس فيبر Max weber الذي يذهب في القول إلى ان الثقافة هي التي تشكل وتحدد الحياة الاقتصادية والمادية. والمثال الشهير الذي يدعم هذه المقولة يتمثل في القيم والمبادئ الدينية لدى البروتستانت، والتي نجم عنها ظهور الرأسمالية في أوروبا في القرنين السادس عشر والسابع عشر وما ارتبط بها من أنماط سلوكية رشيدة وأنشطة اقتصادية صناعية. ويمثل هذا الاتجاه في الدراسات الأنثروبولوجية الحديثة كليفورد جيرتز (١٩٧٣) Clifford Geertz ومارشال سالينز (١٩٧٦) Marshall Sahlins.
رابعاً، البنيوية التي تنطلق من المنهج اللغوي البنائي مع بعض التوجيهات من نظرية المعلومات، بالإضافة إلى الاستعانة ببعض المفاهيم والتصورات الاقتصادية خاصة المتعلقة بعملية التبادل، وذلك لتحديد أنساق الاتصال المتجانسة. تنظر البنيوية إلى الثقافة على انها نسق من الاشارات والرموز ذات الدلالات والمعاني المستترة التي لا يمكن الوصول إليها والتعرف عليها إلا من خلال المنهج البنيوي الذي يهدف إلى الكشف عن العلاقة بين الرموز او الوحدات او الظواهر اكثر من اهتمامه بالرموز او الوحدات او الظواهر في حد ذاتها. فصدق المعنى المرتبط برمز معين او ظاهرة معينة لا يعتمد على رؤية الفرد، بل على علاقة الرمز بالرموز الاخرى داخل نسق رمزي معين. وفي هذا المعنى فان الصدق المقصود هو الصدق المنطقي وليس الصدق المرتبط بالتجربة او افعال الافراد. فالمعنى هو نتاج تطبيق المنهج البنيوي وليست له علاقة بالواقع التجريبي المعيش، بمعنى ان البناء العميق الذي يكمن فيه المعنى المستتر يمكن فهمه من خلال العلاقات القائمة بين الرموز او الموضوعات او الوحدات التي تأخذ شكل التقابل الرمزي او التقابل الثنائي Binary opposition مثل، (الذكر / الأنثى)، (الرجل / المرأة)، (السماء / الارض)، (الشمس / القمر)، (النيئ / المطبوخ)، ونحو ذلك.
إن المشكلات التي تواجه النظريات السابقة، تتمثل في قصورها واعتمادها على رؤية محدودة، اذ لا يمكن تطبيق أي منها على حدة وأغفال ما تقدمه الأخريات من تفسيرات. فطبقاً للنظرية الوظيفية تكمن اهمية الرمز في وظيفته في الحفاظ على البناء الاجتماعي، وليس في المعاني والدلالات التي يحملها. كما ان المعاني تكون ذات اهمية بقدر ما تقوم به من وظائف في التماسك الاجتماعي. لكن معاني الرموز لم تكن موضع الاهتمام في حد ذاتها، كما ان تفسيرات الافراد وتأويلاتهم للرموز ومعانيها لم تشكل اهمية في هذه النظرية. إن التمييز بين (البناء الاجتماعي) و(المضمون الرمزي) نجم عنه تقلص وانحسار للمجال الرمزي أو الثقافي. وفي مقابل الثقافة تأتي الحقيقة الاجتماعية على انها الاجدر بالدراسة والتحليل. كما ان المجتمع له الاهداف الخاصة به والتي تختلف عن اهداف الفرد. فالنسق الرمزي في التحليل النهائي مجرد تعبير عن البناء الاجتماعي، وان ما يمكن ان يقوم به هو تعزيز وتدعيم ذلك البناء.
من ناحية اخرى، تركز النظرية المادية على الجوانب الاقتصادية على حساب العوامل الثقافية.، لكنها لا تستطيع تفسير تمسك بعض الشعوب بأنماط سلوكية تقليدية معينة، مثل: استخدام العصي المخصصة لتناول طعام الارز بين اليابانيين والصينيين بالرغم من التقدم الكبير في مجال التقنية والجوانب المادية والاقتصادية. كما ان النظرية الثقافية او التي تولي العوامل الثقافية أو الاجتماعية دون غيرها اهمية مطلقة في تفسير التغيرات التي تطرأ على المجتمع وأنماط سلوك الأفراد المؤلفين لذلك المجتمع، لا تستطيع أن تفسر التغير في بعض أنماط السلوك المرتبط بالتغيرات التي تطرأ على النسق الاقتصادي كما هي الحال في المجتمعات الخليجية التي شهدت طفرة اقتصادية في العقود الاخيرة من هذا القرن.
تطبق الدراسة منهج التحليل الرمزي – البنيوي بمعنى الاهتمام بالظواهر الاجتماعية ودلالاتها عند الافراد وتأويلاتهم لها بصورة اكبر من الاهتمام بجوانبها الوظيفية. فمهمة الباحث الأنثروبولوجي أو الفولكلوري هي الكشف عن المعنى الكامن داخل الرمز مدركاً ان العلاقة بين الرموز هي علاقة بين معان (Geertz 1973: Doug-las 1966، و١٩٧٣ك - Turn er1982) - وتؤكد هذه الدراسة أن تطبيق مناهج التحليل الرمزي التأويلي البنيوي على بعض عناصر التراث الشعبي العربي يمكن أن يسفر عن نتائج طيبة في مجال فهم التراث والحياة الشعبية العربية. إن التحليل الرمزي – البنيوي هنا يعتمد على فكرة دومو Du - mont المتعلقة بالتقابل الهرمي التدرجي الاحتوائي (١٩٨٦) المتميزة عن الثنائيات المتسقة عند ليفي – ستروس (١٩٦٣) Levi - Strauss التي تحتل فيها الثنائيات المتقابلة وضعاً متساوياً متكافئاً. بعبارة اخرى، إن العلاقة في التقابل الهرمي التدرجي تكون بين الكل whole وجزء داخل ذلك الكل. بمعنى ان هذا التقابل الهرمي التدرجي يحتوي على علاقة مزدوجة من الهوية والضد، والتي يمكن ان تستخدم في تحليل الجوانب المتقابلة المنتمية إلى مستويات ومجالات مختلفة. فمن ناحية يوجد تميز داخل هوية معينة، ومن ناحية أخرى يوجد احتواء للضد. فالتقابل الهرمي يستلزم إضفاء قيمة معينة على احد هذين الضدين، بمعنى أن فكرة ما، رفيعة أو راقية، والتي تضاف إليها قيمة معينة، تقابل الفكرة الادنى رفعة وتحتويها في نفس الوقت. ومن خلال تطبيق فكرة العلاقة الهرمية هذه، فان الجزء أو المبدأ الذي يحل محل الكل يمكن ان يتبلور ويتضح. إن أهمية مناهج التحليل الرمزي – البنيوي الحديثة تتأكد يوماً بعد يوم، وذلك لاهتمامها بالدراسة الميدانية المكثفة والمتعمقة لأنساق المعنى ورؤى العالم وأنماط التفكير وهوية المجتمعات المحلية، خاصة بعد ان تعاظمت التحديات المتمثلة في ما يعرف بالعولمة التي تعمل على ان تسلب تلك المجتمعات خصوصيتها وهويتها تحت مظلة الحداثة والقرية الكونية الواحدة. باختصار شديد، لا يزال التراث الشعبي العربي بحاجة إلى تضافر جهود العلماء للاستفادة من هذه المناهج الحديثة.
إن الاهتمام بالتحليل الرمزي البنيوي يكشف عن التفاعل بين التراث والافراد في حياتهم، الذي هو الشرط الجوهري لضمان دوام وبقاء أنماط التراث الشعبي وعدم تحوله إلى كليشهات خاوية من المعنى. إن وظيفة عنصر معين من عناصر التراث تنحصر في الجوانب العملية الوسيلية كما هو الحال في وظيفة الزي الشعبي في حماية جسد الإنسان، بل يتعدى ذلك إلى وظائف أخرى رمزية ومعنوية. إذ يستخدم زي شعبي معين لإبراز المكانة الاجتماعية لشخص ما أو الكشف عن حالته الاجتماعية أو نوع المهنة التي يعمل بها، فداخل الاطار الرمزي ترتبط اشكال الفولكلور وعناصره بالحياة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والسياسية للجماعة.